النّيُوكُولونيالية وتصفية الإمبريالية، إعادةُ إنتاج المعرفة وسرد التّاريخ لمقاومة الهيمنة الثّقافية الجديدة

Neocolonialism and the Liquidation of Imperialism: Knowledge Reproduction and Historical Narration as Resistance against New Cultural Hegemony

سليم حيّولة *

جامعة المدية يحيى فارس (الجزائر)

haioula@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2026/06/04	تاريخ: القبول: 2026/06/07	تاريخ النشر: 2026/06/30

الملخص: تتناول هذه الدّراسة مسألة الاستعمار الجديد، الذي يُعدّ أحد أهمّ المظاهر الثّقافية والاقتصادية والاجتماعية للعلاقات بين الشعوب في العالم المعاصر، ويُعبّر عن فترة فكرية، تُميّزها الهيمنةُ على البلدان المستقلّة، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، إذ قامت الدّول بعد نيلها الاستقلال بمحاولاتٍ لتصفية المخلّفات المتعدّدة للاستعمار، ترافقت وبروز وضعٍ سياسي واقتصادي وثقافي جديد، تميّز بمواصلة هيمنة قوى الاستعمار السابقة، وهو ما أصبح يُطلق عليه، بحسب الغاني" كوامي نكروما" بـ"الكولونيالية الجديدة"، رأى أنّه، في حقيقته، عبارة عن وضع جديد في العلاقات بين الدّول، نتيجة توسّع النّظام الرأسمالي اللّيبرالي، بحمولاته الاجتماعية والثّقافية والحضارية، وقد وضع "نكروما" مجموعة من المؤلّفات الفكرية المهمّة، لعلّ أهمّها" الكولونيالية الجديدة، آخر مراحل الإمبريالية"، حاول فيه كشف تلاعبات القوى الاستعمارية السابقة، لفرض نموذج اقتصادي وثقافي واجتماعي، يُكرّس تبعيةَ الشعوب المستعمَرة سابقا لهذه القوى، ولسلطتها في نهب الخيرات وتحقيق استعبادٍ جديد، متوسّلة بسردية تاريخية متحيّزة، تمّ خلالها، تمجيد تاريخ أروبا وتسفيه تاريخ الشعوب الإفريقية والآسيوية والانتقاص منه، وأصبحت التّمثيلات المقدّمة حولهما مغلوطة،

وقد استعانت النّيوكولونيالية بالمثقّف "الكومبرادوري"، الذي ساعد ويُساعد الاستعمار الجديد في بسط هيمنته وتحقيق سلطته الكاملة، سياسيا واقتصاديا وثقافيا على الشعوب المقهورة والمستعبَدة، وإنّ السبيل الوحيد لهذه البلدان، حسب "نكروما" و في رأي الكاتب الكيني"نغوجي واثيونغو"، يتمثّل في القيام بثورة ثقافية، وتحقيق المقاومة المستديمة لتصفية الاستعمار، بكلّ أشكاله الكلاسيكية والجديدة في الآن نفسه، ويكون هذا، مبدئيا، بامتلاك الوعي اللّازم من أجل نجاح الاستقلال الفعليّ، عن قوى التّسلّط الإمبريالية، وكذلك من خلال العودة لخصوصيات الشعوب الإفريقية، والمضطهَدة عموما، عن طريق إحياء مسألة الذّاكرة التّاريخية وسرد التّاريخ الحقيقي لتلك الشعوب، أمام الرّواية الغربية الإمبريالية المتحيّزة .

كلمات مفتاحية: النِّيوكولونيالية- نكروما- واثيونغو- الكومبرادور- المقاومة الثّقافية

Abstract:

This study examines the issue of neocolonialism, which represents one of the most significant cultural, economic, and social manifestations of international relations in the contemporary world. Although independent nations attempted to liquidate the multifaceted remnants of colonialism, these efforts coincided with the emergence of a new geopolitical and cultural landscape characterized by the continued dominance of former colonial powers. This phenomenon was termed "Neocolonialism" by the Ghanaian leader Kwame Nakrumah, who perceived it as a new state of international relations resulting from the expansion of the capitalist system and its socio-cultural and civilizational baggage .Nakrumah produced several seminal intellectual works, most notably *Neocolonialism: The Last Stage of Capitalism*, in which he sought to expose the manipulations of former colonial powers to impose an economic, cultural, and social model that entrenches the dependency of formerly colonized peoples. This system facilitates the continued looting of resources and achieves a new form of enslavement by employing a biased historical narrative that glorifies European history while disparaging the

history of African and Asian peoples through distorted representations. This process has been furthered by the recruitment of the "Comprador Intellectual," who aids neocolonialism in asserting its total political, economic, and cultural hegemony over oppressed peoples.According to Nkrumah and the Kenyan writer Ngũgĩ waThiong'o, the only path for these nations lies in launching a cultural revolution and maintaining sustainable resistance to decolonize all forms of imperialism—both classical and new—simultaneously. This begins fundamentally with attaining the necessary consciousness to achieve actual independence from imperialist powers and returning to the cultural specificities of African peoples by reviving historical memory and narrating the authentic history of oppressed peoples in the face of the Western imperialist narrative.

Keywords. Neocolonialism, Nakrumah, WaThiong'o, Comprador, Cultural Resistance.

تمهيد

عانت الدّول الواقعة جنوبَ أوروبا وغربها، منذ نهاية القرن الثّامن عشر الميلادي، من استعمارٍ بغيض، سيطر على جلّ البلدان في إفريقيا وآسيا، كان نتيجة فكرٍ كولونيالي، منغرسٍ، بشكلٍ ثابت، في الفكر الأوروبي، هيمن على تصوّرات الأوروبيّين، منذ القرن السادس عشر، حول الوجود والعالم والإنسان، قائمٍ على جوهرانيةٍ وتحيّزٍ، لكلّ ما يُحيل إلى أوروبا، إنسانا وتاريخا وحضارة وفكرا وقيما، في مقابل الإنقاص من الإنسان غير الأوروبي، مُحيلا إيّاه خارجَ الحضارة وخارج التّاريخ، الأمر الذي حفّز الأفارقة والآسيويّين، على مناهضة هذا الفكر ومقاومة مظاهره المتمثّلة في الاستعمار والهيمنة والتّسلّط، وهو ما عُرف بالدّيكولونيالية؛ التي تعني تصفية مخلّفات الاستعمار الثّقافية والحضارية، وهي عملية تنوّعت من بلد إلى آخر، واختلفت بحسب الفاعلين؛ من رجال السياسة والمثقّفين والكتّاب والفلاسفة، الذي عملوا على محاولة إرجاع صفاء حضاراتهم، وتنقيتها من كلّ ما خلّفه الفكرُ الاستعماري، الذي، وبعد

انحساره، عن أغلب المناطق التي استعمرها، بقي فاعلا ومؤثّرا؛ اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، ما أدام واقعا ثقافيا، قائما على ترسيخ قيم الجوهرانية، والتّحيّز، والعمل على الهيمنة بكلّ الوسائل والطرق، وقد عُرفت هذه الفترة بـ"الكولونيالية الجديدة" Néocolonialism، التي هي، في حقيقتها، مواصلة للمشروع الاستعماري الغربي، من خلال توظيف المثقّف "الكومبرادور"، ومحاولة التّسلّط على البلدان المستقلّة، وخلق ظروف التّدخّل، بإشاعةِ حاجة هذه الدّول للمساعدات الغربية، من أجل النّهوض والتّطوّر، عبر استراتيجيات ثقافية واقتصادية مدروسة، بهدف تشتيت وعي الشعوب المستقلّة، وبثّ الانقسام والتّفرقة على أساس جنسيٍّ أو عرقي، وقد تناول هذه المسائل كلٌّ من الطبيب والمفكّر المارتينيكي "فرانتز فانون"(1925-1961) والغاني"كوامي نكروما" (1907-1972) والكيني"نغوغي وا ثيونغو" (1938-2025)، وغيرهم من المفكّرين، الذي أدركوا هذا الواقع الجديد، حتّى قبل بروزه جليّا، كإحدى سمات العالم الجديد، وأحد ضوابط العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية، بين أوروبا أو الغرب والبلدان الخارجة من الاستعمار .

أوّلا، مشروع تصفية الاستعمار وبروز النِّيُوكولونيالية، الوجهُ الآخر لهيمنة المركز الغربي

خرجت الشعوبُ المستعمَرة من الشروط السياسية والاجتماعية والثّقافية، التي فرضها الاستعمار التّقليدي، بداية من منتصف القرن العشرين، الذي يُعدّ قرن التّحرّر، في إفريقيا وآسيا، وحاولت الدّول الوطنية، تحت قيادةٍ شابّة وطموحة، في خمسينيّات القرن العشرين وستّينيّاته، السير بشعوبها نحو التّحرّر الحقيقي وتصفية الفكر الاستعماري بمختلف أوجهه، وهو ما يُعدّ عمليةً جبّارة وطويلة الأمد، نظرا للتّركة الثّقيلة للاستعمار ومخلّفاته الوخيمة، على الإنسان وعلى اللّغة والهوية والتّاريخ والاقتصاد، ونظرا للشروط الحضارية العالمية، ظلّت هذه الدّول تكابد العناءَ وتَجهد في سبيل تحقيق المنجزات، التي تجعلها تفرض انعتاقها الفعلي عن الاستعمار وتصفية شوائبه المدمّرة، ونظرا للسياقات

العالمية، التي لم تكن في صالحها، وعلى الرغم من تحقيقها للعديد من الإنجازات في هذا السبيل، إلّا أنّ بروز وضع جديد، منع من التّحقّق الكلّي لعملية التّحرر وتصفية آثار السلطة الاستعمارية، ميّز هذه السياقات الجديدة تدخّل قوى الاستعمار السابقة، والإمبريالية، اقتصاديا وعسكريا، وكذلك ثقافيا، مطبّقة سياسات هيمينة، مستعملة أعوانها المختلفين، وهو الوضع الذي أصبح يُعرف بـ" النّيُوكولونيالية" أو"الكولونيالية الجديدة"، وهي، كما يُعرّفها"دوغلاس روبنسون" « **شكلٌ من السيطرة الاقتصادية على بلدٍ من قِبل بلد آخر، دون فتحٍ صريح أو احتلال، وعادة ما يتمّ ذلك من خلال فاعلية الشركات الكبيرة متعدّدة الجنسيات؛ فبِشراء الأرض التي يقوم عليها اقتصادُ الفلّاحين الزّراعي الكفافي أو الاقتصاد التّبادلي، تخلق الشركات اقتصادا ماليا تابعا لها، في عمالته ودخله ومر افقه الحديثة**»[1]. فالكولونيالية الجديدة ذات طابع اقتصادي توسّعي، تُعَدّ استمرارا للرأسمالية، القائمة في أصلها على الهيمنة، وعلى التّوسّع خارج إطار الميتروبول، فالاستعمار الذي خرج بفعل ثورات التّحرير المسلّحة، التي دامت سنين طويلة، ترك البلدان التي احتلّها ضعيفة وفقيرة ومنهكة اقتصاديا واجتماعيا، وأفرغَها ثقافيا وحضاريا، لكنّها، وبفضل الجهود التي بذلها الحكّام الوطنيّون الأوائل، وأعمالهم التّنموية، من أجل وضعها في طريق التّمدّن، استطاعت أغلب الدّول المتحرّرة تحقيقَ النّقلة الحضارية، التي مكّنتها من أخذ مكانتها بين الأمم، لكنّ مسيرتها تلك، غالبا ما شابها التّعثّر، بفعل تدخّل القوى الاستعمارية وقوى الإمبريالية الكبرى، من خلال استعمال الشركات والمؤسّسات، وبمساعدةٍ من البورجوازيّين المحلّيّين، الذين تركهم الاستعمار، تحكّموا في زمام الاقتصاد، وأصبحوا يُمثّلون الوسيط بين الدّول الوطنية والاستعمار، لتحقيق المزيد من التّبعية، وهو ما أفاض "فرانز فانون" الحديث فيه، وقد تمّ خلال هذا الوضع تكريس السردية الأوروبية الاستعمارية والتّمثيلات النّمطية عن الإنسان غير الأوروبيّ، التي تشبّع بها الفكر الكولونيالي، وسيطرت على أفهام النّاس مدّة طويلة، فبينما كانت أوروبا ترى نفسَها قويّة ومتحضّرة ومسيطرة، تمّ تصوير الأفارقة والآسيويّين باعتبارهم متخلّفين وغير متحضّرين، وفي حاجة إلى سندٍ أوروبي، لإقامة شؤونهم وتطوير مجمل مناحي

حياتهم، وقد أنتج هذا التّصوّر قوالبه في مجال الثّقافة والأدب، وأصبح دليلا على الإنسان والتّاريخ والاقتصاد والثّقافة، وغيرها من مظاهر الحياة المعاصرة .

أصّل جماعةُ النّقّاد الأستراليّين، مصطلح "النّيوكولونيالية" ورأوا أنّ"كوامي نكروما"، الرئيس الأوّل لدولة"غانا" المستقلّة"، يُعدّ أوّلَ من صاغ هذا المفهوم، في كتابه" الكولونيالية الجديدة؛ المرحلةُ الأخيرة للإمبريالية"، الصادر في سنة 1965، بعد أن تخلّصت بلادُه من استعمار بريطانيّ بغيض، دام سنين طويلة، لكنّ بلادَه بقيت تابعة اقتصاديا وسياسيا، وظلّت ثرواتها تُنهب من قبل هذا الاستعمار المنسحب، وهو ما جعله يتبنّى موقفا حازما من الاستعمار الجديد، الذي عاد، بشكل مختلف عن الاستعمار التّقليدي، لكنّه حاسمٌ في السطو على مقدّرات الشعوب الإفريقية، ويُعِدّه أكثر ذكاء وأبرع في التّخفّي، ونظرا لمخاتلته وتلاعباته، فهو صعبُ الكشف والضبط، وعصيّ على المقاومة كذلك، لأنّه يعتمد على بقايا القوى الكولونيالية السابقة والقوى العظمى الجديدة، أبرزها الولايات المتّحدة الأمريكية، التي تُعدُّ، اليوم، القوة المهيمنة الأولى، والأكثر سطوة وتدخّلا في سياسات البلدان الأخرى واقتصادياتها . وقد كتب "نكروما" عددا من المؤلّفات المهمّة في سياق التّحرّر من الاستعمار من بينها" في سبيل التّحرّر من الاستعمار" سنة 1946، و"ماذا أعني بالفعل الإيجابي" 1950، وكتابه حول"غانا. سيرة ذاتية " في سنة 1957، بينما نشر سنة 1961 كتابا وسمه بـ" أتكلّم حريةً" وفي سنة 1963 صدر له كتاب مهمّ، يدعو فيه الأفارقة للتّوحّد ضدّ الاستعمار الجديد وضدّ نهب ثروات الأفارقة وضدّ كلّ أشكال الاستعباد والاضطهاد والقهر، وسمه بـ "إفريقيا يجب أن تتوحّد"، وهي مؤلّفاتٌ تدخل كلّها ضمن نضاله المستميت ضدّ الاستعمار والإمبريالية، وضدّ كلّ أشكال التّسلّط والهيمنة، والظروف الحديثة للواقع الاقتصادي والثقافي الجديد، الذي أحلّته النّيوكولونيالية[2].

وعلى الرّغم من أنّ مفهوم" النّيوكولونيالية" ظهر عند "نكروما" في ستّينيات القرن العشرين، إلّا أنّ "فرانز فانون" كان قد تنبّأ في كتابه"معذّبو الأرض" بزوال الاستعمار

وانحصاره عن البلدان المستعمَرة، وأوضح كيف تقوم طبقة من البورجوازية المحلّية، الفقيرة ثقافيا، بإنجاز مشاريع يُفترض أن تكون في صالح شعوبها، لكنّها، في الحقيقة، تزيد توثيق العلاقة مع الاستعمار ومؤسّساته الاقتصادية[3] ، وهو ما سيكرّس شكلا تسلّطيا جديدا هو ما سمّاه "نكروما" بـ "الكولونيالية الجديدة"، إذ تناول في كتابه المخصّص له طبيعة هذه الأخيرة ونتائجها على الشعوب الإفريقية والمستضعَفة بصفة عامّة، ويُعِدُّ الاستعمارَ الجديد أسوأ أشكال الإمبريالية، لأنّ ممارسيه من القوى الاستعمارية السابقة، يتمتّعون بسلطة بلا مسؤولية، أمّا الشعوب الخاضعة له فتُعاني استغلالًا بلا عدالة، ويُضيف بأنّ عصر النّيوكولونيالية، تميّز بتثبيت الأسعار في الأسواق العالمية، وهيمنة الشركات متعدّدة الجنسيات، والاتّحادات الاحتكارية، إضافة إلى تأثيراته في المجال التّعليمي والثّقافي، بما يجعله مؤثّرا بشكل كبير، في مختلف المظاهر الاجتماعية والثّقافية، بفعل التّدخّل في سياسات البلدان المقهورة، ويُضيف"نكروما" أنّ «**جوهر الاستعمار الجديد هو أنّ الدّولة الخاضعة له نظريّا، مستقلّة وتتمتّع بجميع مظاهر السيادة الدّولية، أمّا في الواقع فإنّ نظامَها الاقتصادي وبالتّالي سياستَها موجّهة من الخارج...الاستعمار الجديد هو أيضًا أسوأ أشكال الإمبريالية .فهو يعني لمن يمارسُه سلطةً بلا مسؤولية، وللّذين يُعانون منه استغلالًا بلا عدالة**»[4]. فبحكم أنّ "نكروما" كان رئيسا لدولة إفريقيّة مستقلّة حديثا، إذ نالت غانا استقلالها في سنة 1957، فقد كان قريبا من الواقع الوطني والإفريقي، ولمس الضغوط التي كانت تُمارس على الأفارقة، من أجل إقامة الاتّفاقات الاقتصادية، وكذلك محاولات فرض نُظم تعليمية غربية، لذلك فإنّ أقواله تُعدّ شهاداتٍ تاريخية، لها قيمتها ووزنها في هذا المجال، فعلى الرّغم من استقلالها، فإنّ الدّول الإفريقية تخضع لسلطة جديدة، وهي ما يُسمّيه نّكروما بـ" النّيُوكولونياليزم"، أي الخضوع السياسي والاقتصادي وتأثيراته الثّقافية والاجتماعية الأخرى، التي تعمل على تحديد طبيعة المجتمعات الخاضعة له، ما يعني، في نهاية المطاف، أنّها ما تزال مستعبَدة وخاضعة، ومن الطبيعي في حالة الهيمنة الاقتصادية، أن يمتدّ الأمر إلى الجوانب الثّقافية ونظم التّعليم، وحتى ولو لم يُشر "نكروما" إلى هذا صراحة، فإنّ الواقع يدلّ على

توجيه الدّول الاستعمارية الكبرى للسياسة الثّقافية للدّول الإفريقية، ومحاولة فرض لغة المستعمِر، لتحويل تلك الشعوب عن إحدى أهمّ عناصر هويّتها، وهذا يدخل، بصفة عامّة، في إطار تثبيت التّمثيلات الكولونيالية عن الشعوب المستعمَرة، وترسيخ صورة "تخلّف أبديّ" لإفريقيا، مع أنّه، في الواقع، هو إحدى نتاجات السياسات الكولونيالية والنّظُم التي أسّستها الإدارة الاستعمارية، وساهمت وسائل الإعلام الغربية في تكريس هذه الصورة، التي لم تبق متعلّقة بالغرب فحسب، بل نالت مشروعيّتها عند الأفارقة أنفسهم، ما ساهم في إحباط قدراتهم وشلّ جهودهم، وتعثّرهم في إقامة مشاريع النّهضة الاقتصادية والاجتماعية والثّقافية، ولم تعد شعوبها قادرة على الخروج من حالة "التّخلّف"، التي أصبحت واقعا فعليا، بسبب تنميطات الغرب وتمثيلاته، التي عمل على إشاعتها وجعلها حقيقة .

ساهم الولاء للاستعمار القديم، وعقد الاتّفاقات في مجالات مختلفة، في جعل إفريقيا وشعوبها الخاسر الأكبر، اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، ولم تستطع مجتمعات دُولها التمتّع باستقلالها وحريّتها، وظلّت منسلخة عن خصوصيّاتها وعناصر هويتها، وبقيت خاضعة لسردية أوروبا الحضارية، ولم تستطع سرد تاريخها الحقيقي وترسيخه في وعي الشعوب في إفريقيا، ولم يكن لمواطن تلك البلدان حظٌّ كبيرٌ في التّصرّف في خيرات أرضه، بعيدا عن سطوة الأوربيين ومؤسّساتهم المهيمنة. في قراءته لأفكار "نكروما" حول هذا الواقع الجديد، يرى "مارك لونغان" أنّه « **قد عبّر عن هذا المنظور الجذري ببلاغة في عدّة مقاطع من كتابه "الاستعمار الجديد: المرحلة الأخيرة من الإمبريالية."وفي تعريفه الرئيسي لهذا المفهوم، سلّط الضوء على التّأثير الاقتصادي للقوى الخارجية، وكيف أدّى ذلك بدوره إلى تقليص الحريات السياسية في الدّول الأفريقية**»[5]. فالنّيوكولونيالية كفكر إجرائي جديد، زاد من تبعية البلدان المستقلّة لأوروبا، إذ بدلا من تحقيق حريتها الكاملة والتّمتّع بخيرات بلادها، أصبحت جزءا من مؤامرة غربية أخرى. ويذهب "مارك لانغان"، كذلك، إلى أنّ"نكروما" يُعدّ الشخصية البارزة في إفريقيا، فهو قاد بلادَه غانا إلى الاستقلال عن بريطانيا، ويرى أنّ كتابيه "الاستعمار الجديد: المرحلة الأخيرة من الإمبريالية"، وسابقه "يجب أن تتّحد أفريقيا" (1963)، قدّم، فيهما، تحليلا عميقا

لمختلف التّدخّلات الأجنبية في مشاريع التّنمية، من قبل قوى خارجية، من خلال تمويلٍ ماليّ مشبوه، لتحقيق أهداف الدّول المانحة، التي لا تصبّ، في النّهاية، في مصلحة الدّول الخارجة من الاستعمار ولا لفائدة شعوبها، ويُضيف "لانغان" بأنّ "نكروما" يُقدّم تعريفا للاستعمار الجديد، مرتبطا بالتّأثيرات الاقتصادية التي تقوم القوى الخارجية، من خلالها، بتقليص الحريات السياسية للدّول الإفريقية[6]، فالكولونيالية الجديدة تختزل الواقع المعاصر، في العلاقات المختلفة بين الشعوب، إذ تتواصل معها هيمنة قوى الاستعمار والإمبريالية، لتحقيق المزيد من نهب الخيرات واستعباد الشعوب المضطَهدة والمقهورة، وتُواصل سرد روايتها التي تُكرّس "تخلّف" إفريقيا وتُديمها .

ثانيا، المثقّف الكومبرادوري، وتكريس هيمنة الإمبريالية

تعمل الإمبريالية في عصر النّيوكولونيالية على توظيف مجموعة من البورجوازية المحلّية، التي تركها الاستعمار، تقوم على مشاريع الشراكات الاقتصادية، تُوهم الشعوب المقهورة بأنّها ضرورية لتنمية بلدانهم وتطوير مناحي حياة شعوبها، بينما هي، في الحقيقة، تُدرّ على تلك الطبقة أرباحا طائلة، وتُثبت وضعيّاتهم الاجتماعية، وتجعلهم يتزعّمون السلطة في بلدانهم، ولا تُساهم في التّنمية الفعلية والمنشودة من قبل شعوبها، وهؤلاء البورجوازيّون عادة ما تتمّ تسميتهم بـ"الكومبرادور"،Comprador أو "الوكلاء"، وهم الذين أشار إليهم"فرانز فانون"، وتنبّأ بأنّهم أولئك الذين سيتحكّمون في سياسة البلدان المستقلّة، في إفريقيا وفي اقتصادياتها، وقد تناول هذه المسألة الكُتّاب المعروفون بجماعة النّقّاد الاستراليّين، وهم؛ "بيل أشكروفت"و"جاريث جريفيث"و"هيلين تيفين"، المختصّين في الدّراسات ما بعد الكولونيالية، ومختلف المسائل المتعلّقة بالاستعمار والهيمنة الثّقافية الجديدة، وحدّدوا أصول الكلمة البرتغالي، وأشاروا إلى مفهومها ومجال توظيفها، إذ رأوا أنّ" الكومبرادور" **Comprador «طبقة من الوكلاء، استخدمه الماركسيّون للإشارة إلى أولئك المنتمين إلى طبقة البورجوازية المحلّية الذين يَدينون بوضعهم المتميّز للاحتكارات الأجنبية، ومن ثمّ يُحافظون على**

مصلحتهم الراسخة في بقاء الاحتلال الكولونيالي»[7]. فهؤلاء "الوكلاء"، عادة ما خلّفهم الاستعمار وراءه بعد مغادرته لمستعمراته، يقومون بالحفاظ على مصالحهم، من تجارة وصناعة وغيرها، لكنْ، غالبا ما يقومون بدور الوسيط، اقتصاديا وتجاريا، بين القوى الاستعمارية سابقا وحكومات دولهم الوطنية الفتيّة، ومهمّتهم في إطار هذا الواقع الجديد، هو ضمان استفادة البلدان المستعمِرة سابقا، من خيرات البلاد المستقلّة، بطرق خفية، تُوهم أنّ الأمور كلّها تسير في صالح الشعوب المستعمَرة، غير أنّ نهب خيرات تلك البلدان بقي متواصلا، ولم يتوقّف، وقد ازداد الأمر سوءا حين تبرز الحاجة لبعض المساعدات، فيتمّ إبرام الصفقات والاتّفاقات، التي عادة ما تكون في غير صالح الشعوب المستقلّة، وهو ما يزيد في تبعيّتها للاستعمار الجديد .

ظهر هذا المفهوم المهمّ في فهم التّمفصلات الحضارية والثّقافية والاقتصادية المعاصرة، التي تدخل ضمن علاقات الشعوب المعاصرة، حسب هؤلاء النّقّاد، في إطار نظرية ما بعد الكولونيالية، وبرز كأساس فعليّ وواقعي لوضعٍ اقتصاديّ جديد، فرضته قوى الاستعمار المنسحب والإمبريالية المهيمنة، من أجل تثبيت مكانها والحفاظ على مصالحها الاقتصادية، في البلدان التي تركتها، إذ يرون أنّه «**في نظرية ما بعد الكولونيالية طُوّر المصطلح[Comprador] استخداما أوسع ليشمل طبقة النّخبة المثقّفة، طبقة الأكاديميين والكتّاب الإبداعيّين والفنّانين، ممّن قد يتنازلون عن استقلاليّتهم باعتمادهم على القوّة الإمبريالية وتوحّدهم معها**»[8]. وهذا "الكومبرادور" ذو الأوجه المتعدّدة، الاقتصادية والاجتماعية والثّقافية، يُساهم في تسهيل تطبيق سياسة ثقافية معيّنة، أو إشاعة أفكار ذات منشأ كولونيالي في البلدان الإفريقية، هدفها الإخضاع والهيمنة، إذ يقوم هؤلاء بفسح المجال لتبنّي القيم الأوروبية، الموهمة بطابعها الإنساني، وتدعو إليها، وهذا ما يُمثّل خطرا كبيرا على قيم الأمّة وعناصر هويّتها من جهة، وعلى اقتصادها وثرواتها من جهة ثانية.

وهكذا ومن أجل تحقيق أهدافها المختلفة في الهيمنة الاقتصادية، عملت القوى الإمبريالية الكبرى، على فرض هيمنة أخرى؛ ثقافية واجتماعية، تقوم بها طبقة من المثقّفين في صالح القوى الكبرى، هدفهم تبنّي خطاب أوروبي، يُوهم بأنّه محلّي الطابع، ويتغنّى بالدّيمقراطية وضرورة التّعايش والتّفاعل مع مختلف الثّقافات، لكنّ هدفه الخفيّ يتمثّل في محاولات فكّ عرى المقاومة والنّضال، التي ما تزال مشتغلة في قلوب الشعوب المستقلّة، المدركة لخطورة الاستعمار والإمبريالية، بهدف إخبات جذوتها، وتتضمّن الإشارات التي ألمح إليها "نكروما" في مؤلّفه حول "النِّيوكولونيالية" إلى التّأثيرات الثّقافية للإمبريالية، إذ إنّ الواقع الفعليّ يدلّ على توجيه الدّول الاستعمارية الكبرى للسياسات الثّقافية للدّول الإفريقية، كما يتمّ، في هذا الإطار، استقبال العديد من الطلبة، أغلبهم من أبناء الطبقة الميسورة، التي تتحكّم في مقاليد الدّول الإفريقية، للدّراسة في منحٍ مغرية، بهدف خلق طبقة من المثقّفين، الذين تشرّبوا أفكارَ الإمبريالية والاستعمار الجديد، المغلّفة بقيمٍ إنسانية، من أجل توفير الظروف المناسبة، لمزيد من الهيمنة وتكوين طبقة مثقّفة تُعطي الولاء للاستعمار السابق، فضلا عن ذلك تطغى مسألة هيمنة اللّغة الأجنبية على اللّسان الإفريقي، في مجالات عديدة، وذلك عبر اتّفاقات، دائما ما يكون الخاسر الأكبر فيها هو الأفارقة وإفريقيا، لأنّ الاستقلال الفعلي هو الوضع الذي يتمّ فيه التمتّع بالخصوصيات القومية والالتزام بعناصر الهوية وسرد التّاريخ الحقيقي للشعوب الإفريقية، والوعي بالتّلاعبات المختلفة، التي تقوم بها الإمبريالية .

أصبح مصطلح" كومبرادور"، بحسب النّقّاد الاستراليّين، بعد "نركروما" شائعا، في مختلف الدّراسات، التي تتناول علاقات إفريقيا ودول العالم الثّالث، بالغرب الإمبريالي، ليدلّ على سياقات هيمنية جديدة، ذات أوجه متعدّدة، إذ يرون أنّه «**ومنذ ذلك الحين، شاع هذا المصطلحُ على نطاق واسع، إشارة إلى أيّ، وكلّ، شكلٍ من أشكال السّيطرة التي تُمارَس على المستعمرات السابقة...وفي الآونة الأخيرة، صار ارتباط المصطلح بتأثير القوى الإمبريالية السابقة أقلّ من ارتباطه بدور القوى العظمى الجديدة، لاسيما الولايات المتّحدة الأمريكية، التي حاجج البعض بأنّ ماضيها الكولونيالي حلّ محلّه دورُها الكولونيالي الجديد**

المهيمن، فيما يتعلّق بإرساء قواعد اقتصاد رأسمالي عالمي... وشاع هذا المصطلح أكثر ما شاع في مناقشة الشؤون الإفريقية وفي الأوساط الأمريكية اللّاتينية والجنوبية الآسيوية»[9]. فبِفعل سيطرة وسائل الإعلام الغربية وتدخّل "الخبراء" وهم عادة من بلدان كانت مستعمَرة، الذين يتصدّرون المشاهدَ الإعلامية للحديث عن بلدانهم، بغرض إظهار معاناة شعوبهم تحت سلطة الدّول الوطنية وحاجتهم لمشاريع تنموية، يقوم هؤلاء الخبراء بتقديم صورة مغلوطة عن أوطانهم، من أجل تبرير تدخّل القوى الكبرى، اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، وهي مسألة أفاض المنظّر والمقارن الإيراني" حميد دباشي" الحديث عنها في أهمّ كتابين من مؤلّفاته؛ هما "ما بعد الاستشراق؛ المعرفة والسّلطة في زمن الإرهاب"، وفي مؤلّفه الآخر الموسوم بـ"هل يستطيع غير الأوروبي التّفكير؟"، إذ رأى أنّ ما يُميّز العالم المعاصر هو مختلف التّدخّلات في شؤون الدّول الضعيفة، التي تقوم بها الولايات المتّحدة، مستعينة في بسط هيمنتها الاقتصادية والسياسية بـ"الخبراء"، المهجّرين أو المنفيّين من بلدانهم[10] .

وإنّنا اليوم، لا نجد من وسيلة لمجابهة هذه الكولونيالية الجديدة، سوى تمتين الجبهة الدّاخلية وإحلال العدالة وتنظيم عمليات التّنمية، وفتح المجال للشراكات مع دول غير إمبريالية، والاستفادة من المقوّمات المحلية، من أجل تحقيق النّقلة الحضارية، التي تسمح للدّول الفتية، خصوصا في إفريقيا، من الخروج عن التّبعية للكولونيالية الجديدة، وهذا يدخل ضمن المقاومة والنّضال، كما يُسمّيها الكاتب الكيني"نغوجي واثيونغو"(1938-2025)، الذي كان واعيا بمختلف قوى التّسلّط والسيطرة الغربية، ويذهب إلى أنّ النّضال هو الإستراتيجية اللّازمة، من أجل مجابهة القوى الاستعمارية الجديدة، إيمانا منه بأنّ على الشعوب الإفريقية أن تقوم بمقاومة ثقافية ضدّ القيم الغربية المهيمنة، وضدّ أشكال السيطرة التي تتعرّض لها، من أجل، كما يُسمّيه، الإمساك من جديد، بمبادرتهم الخلاقة في التّاريخ، ويدعو، في الوقت ذاته، كوسيلة من وسائل المقاومة، إلى العودة لخصوصيات الشعوب الإفريقية اللّغوية وقطع الصلة مع الثّقافة الغربية المهيمنة، لأنّ النِّيوكولونيالية تبدأ من هنا، ويُضيف بأنّ «**الاستعمار...مستمرّ في التّحكّم بالاقتصاد، والسياسة، وثقافات إفريقيا. لكنْ، من**

النّاحية الأخرى، ثمّة النّضال المستمرّ لشعب إفريقيا، من أجل تحرير اقتصاده وسياسته وثقافته من الخانق الأورو-أمريكي، كي يدخل عهدا جديدا من التّنظيم الذّاتي وتقرير المصير الحقيقيّين»[11]. فنظرة "واثيونغو" مليئة بالتّفاؤل، في صالح تحقيق الاستقلال الفعلي وضمان المناعة الحضارية لإفريقيا، طالما بقيت المقاومة مشعّة في نفس كلّ إفريقي، وإنّ مجابهة الاستعمار والاستعمار الجديد اليوم، تكون عن طريق إحياء مسألة الذّاكرة التّاريخية وسرد التّاريخ الحقيقي للشعوب المضطهَدة، ضدّ السردية الغربية الإمبريالية، وتحطيم كلّ القيم التي ورثها عن الاستعمار ومنح الحرية للأفارقة، من أجل ضمان مستقبل شعوبهم، والاستفادة من خيراتهم وتحقيق العدالة الفعلية، والأهمّ، في هذا كلّه، هو بناء شراكات اقتصادية وعلاقات ثقافية واجتماعية جديدة، تكون في صالح الشعوب المقهورة، ومراجعة مختلف التّمثيلات النّمطية عن الإنسان الإفريقي والآسيوي، لإحلال التّفاهم والتّعاون الحقيقي لمجابهة مشاكل العالم المعاصر الحقيقية، وهي محاربة الجهل ودحض الفقر وتطوير التّعليم والصحّة، ضمن حدود عناصر الهوية الوطنية والقيم الإنسانية الفاعلة .

مصادر البحث ومراجعه المعرفية والمنهجية

- جيرار لكلرك، الأنتروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطبعة الثّانية، 1990
- ميغان الرويلي وسعد البازعي، دليلُ النّاقد الأدبي، إضاءةٌ لأكثر من سبعين تيّارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، الطبعة الثّالثة، 2002
- دوغلاس روبنسون، التّرجمة والإمبراطورية، نظرياتُ التّرجمة ما بعد الكولونيالية، ترجمة ثائر علي ديب، دار الفرقد، دمشق، الطبعة الثانية، 2009
- خلدون الشمعة، المختلفُ والمؤتلف؛ تمثيلاتُ المركز الغربي والهامش العربي وشيطنة الآخر، منشورات المتوسّط. إيطاليا، الطبعة الأولى. 2019
- هيغل، فينومينولوجيا الرّوح، ترجمة ناجي العوْنلّي، المنظّمة العربية للتّرجمة ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة. بيروت، الطبعة الأولى، 2006
- فرانتز فانون، معذّبو الأرض، ترجمة سامي الدّروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنّشر القاهرة الطبعة الثانية، 2015

- فرانتز فانون، العامُ الخامس للثّورة، ترجمة كريمة سماعلي، دار الوطن اليوم، 2023
- تيري إيغلتون، نظريةُ الأدب، مدخل، ترجمة ثائر ديب، دار المدى للثّقافة والنّشر، سوريا، الطبعة الأولى، 2006
- إعجاز أحمد، في النّظرية، طبقاتٌ، أممٌ، آداب"، ترجمة ثائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، الطبعة الأولى، 2019
- جون ماكلويد، نظريّةُ ما بعد الاستعمار؛ دراساتٌ ومقالاتٌ مختارة، ترجمة أشرف إبراهيم محمد زيدان، مؤسّسة بيان للتّرجمة . القاهرة، 2020
- بيل أشكروفت وجاريث جريفيث وهيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونيالية؛ المفاهيم الرئيسية، ترجمة أحمد الروبي وأيمن حلمي وعاطف عثمان ، المركز القومي للتّرجمة. القاهرة، الطبعة الأولى 2010
- فرانز فانون، بشرة سوداء أقنعة بيضاء، تركيب خليل أحمد خليل، دار الفارابي، بيروت منشورات آنيب. الجزائر، الطبعة الأولى، 2004
- نغوجي واثيونغو، تصفيةُ استعمار العقل، ترجمة سعدي يوسف، دار التّكوين. سوريا، 2011
- إدوارد سعيد، الثّقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبوديب، ترجمة كمال أبوديب، دار الآداب بيروت، الطبعة الثالثة، 2004
- إدوارد سعيد، الاستشراق؛ المفاهيم الغربية للشرق،إدوارد سعيد، ترجمة محمد عنّاني،دار رؤية للنّشر والتّوزيع. القاهرة، الطبعة الأولى، 2006
- حميد دباشي، هل يستطيع غير الأوروبي التّفكير؟ترجمة عماد الأحمد، دار المتوسّط. إيطاليا، الطبعة الأولى. 2016
- حميد دباشي، ما بعد الاستشراق؛ المعرفة والسّلطة في زمن الإرهاب، ترجمة باسل عبد الله وطفه، منشورات المتوسّط. إيطاليا، الطبعة الأولى، 2015
- Aimé Césaire, Discours sur le colonialisme, suivi de Discours sur la Négritude, Editions Présence Africaine, Paris , 2005
- Mark Langan, NEO-COLONIALISM AND THE POVERTY OF DEVELOPMENT IN AFRICA, series editor Eunice N . Sahle University of Carolina at Chapel Hill. U S A 2018
- KWAMI NAKRUMA ? NEO-COLONIALISM ? The Last Stage of Imperialism, international publishers New York, 1966

الهوامش

[1]- دوغلاس روبنسون، التّرجمةُ والإمبراطورية، نظريّاتُ التّرجمة ما بعد الكولونيالية، ترجمة ثائر علي ديب، دار الفرقد، دمشق، الطبعة الثّانية، 2009، ص 221

[2]- بيل أشكروفت وجاريث جريفيث وهيلين تيفين، دراساتُ مابعد الكولونيالية؛ المفاهيمُ الرئيسية، ترجمة أحمد الروبي وأيمن حلمي وعاطف عثمان ، المركزُ القومي للتّرجمة. القاهرة، الطبعة الأولى 2010، ص 254

[3]- يُنظر، فرانتز فانون، معذّبُو الأرض، ترجمة سامي الدّروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنّشر، القاهرة، الطبعة الثانية، 2015 ، ص 144

[4] - KWAMI NAKRUMA , NEO-COLONIALISM ? The Last Stage of Imperialism, international publishers New York, 1966, p IX and XI

[5] - Mark Langan, NEO-COLONIALISM AND THE POVERSTY OF DEVELOPMENT IN AFRICA, series editor Eunice N . Sahle University of Carolina at Chapel Hill U S A 2018, p5

[6] - Mark Langan, NEO-COLONIALISM AND THE POVERSTY OF DEVELOPMENT IN AFRICA, p 4

[7]- بيل أشكروفت وجاريث جريفيث وهيلين تيفين، دراساتُ ما بعد الكولونيالية، ص 118- 119

[8]- بيل أشكروفت وجاريث جريفيث وهيلين تيفين، دراساتُ ما بعد الكولونيالية، ص 118-119

[9]- بيل أشكروفت وجاريث جريفيث وهيلين تيفين، دراساتُ ما بعد الكولونيالية، ص 254- 255

[10]- يُنظر؛ حميد دباشي، ما بعد الاستشراق؛ المعرفة والسّلطة في زمن الإرهاب، ترجمة باسل عبد الله وطفه، منشورات المتوسّط. إيطاليا، الطبعة الأولى، 2015 ويُنظر كذلك؛ هل يستطيع غير الأوروبي التّفكير؟ ترجمة عماد الأحمد، دار المتوسّط. إيطاليا، الطبعة الأولى. 2016

[11]- نغوجي واثيونغو، تصفيةُ استعمار العقل، ترجمة سعدي يوسف، دار التّكوين. سوريا، 2011،ص 20